

الزكاة... وعمارة الفقراء

دكتور عبد الباقي إبراهيم

رئيس مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية

بالرغم من كل الجهود الدولية والدراسات والتجارب العالمية لم تجد عمارة الفقراء مكانها المناسب في برنامج وسياسات الإسكان خاصة في الدول النامية حيث الغالبية العظمى من الفقراء.. واستقرت سياسات الإسكان في معظم هذه الدول عند حد تقدم البدائل التصميمية والإنشائية لما يسمى بإسكان ذوي الدخل المحدود أو الإسكان الاقتصادي وهي مسميات بعيدة كل البعد عن مفهوم عمارة الفقراء.. والفقراء هنا هم الذين يكادون للحصول على لقمة العيش اليومي مع ستر البدن لهم أدنى حدود المدخرات التي يستطيعون بها الحصول على المسكن، وهم غير هؤلاء الذين ينتظرون الحسنة أو الزكاة دون أن يحركوا ساكنا وهم على قدر من الصحة يؤهلهم للعمل حتى كحمالين بدلا من تقاعدهم كما يوجه بذلك الحديث النبوي الشريف.

لقد وضع حسن فتحى يده على هذه المشكلة منذ أربعين عاما عندما بدأ التعامل مع مشروع قرية القرنه.. وان كان هدف الإسكان فيها ليس للفقراء ولكن لنقل سكان القرية القديمة التي أنشأت مساكنهم على أحد التلال الزاخرة بالآثار المدفونة تحتها وكانت مصدرا للتراث لهؤلاء السكان الذين امتنعوا بطبيعة الحال عن الانتقال إلى قرية حسن فتحى الجديدة واستمرت مبانيها خاوية على عروشها حتى أصابها ما أصابها من إهمال وتخريب.. بعد أن تغنى بها الشعراء وتأدب بها الأدباء وانتشر فكرها التخطيطي والتصميمي في كل الأرجاء وتقبله المثقفون والأغنياء قبل الأमीين والفقراء، وتحمدهم فكر حسن فتحى لدى الغالبية عند هذا الحد بعد أن ارتبطت عمارته عندهم بعمارة الطين.. حيث لم يعد هناك طين.. وإذا كانت عمارة الفقراء كفكر قد بدأها حسن فتحى فلا يصح أن تنتهى برحيله، الأمر الذى يستوجب الاستمرار بها بأساليب أخرى ومناهج أخرى ما دامت تؤدي إلى تحقيق أهداف هذا الفكر، دون تحيز لمادة أو لشكل.. فقد مرت تجربة حسن فتحى بالعديد من العقبات التنظيمية والتنفيذية وظهرت بسلبياتها وإيجابياتها وهو ما تعرض له الكتاب الذى نشرته عن حسن فتحى وبمعرفة بل وبتأييده حيث وفر له كل ما فى ملفاته الخاصة وكل بحوثه ودراساته بأمل تقديم تجربته عن عمارة الفقراء بسلبياتها وإيجابياتها وقد رأى فى ذلك دفعا للاستمرار فى البحث والدراسة واستمرارا فى العمل على تحقيق أفكاره وأهدافه التى لم تتحقق بالصورة التى كان يريد.. كما رأى فى ذلك امتدادا لرسالته الحضارية.

ترتبط عمارة الفقراء بعدد من العوامل التى تحدد ملامحها الأساسية وألها التعريف بالفئات المختلفة للفقراء العاملين منهم والمتقاعدين.. ثم تحديد متطلباتهم المعيشية والمواقع المناسبة لإسكانهم من خلال الجدوى الاستيطانية للتنمية العمرانية ثم البحث عن مواد وأساليب البناء والتشييد التى تتناسب مع قدراتهم العملية والمادية وتقدير مدى مساهمتهم فيها... بالتطوع أو بالأجر.. ومهما كانت هذه الأساليب فإن المكون المالى وبأى نسبة سوف يستمر هو المحرك والدافع الأساسى لعمليات البناء والتشييد. وإذا ذكر المكون المالى فى البناء والتشييد لعمارة الفقراء فلا بد من تجنب الإدارة الحكومية التى تخضع أعمالها لنظم العطاءات والممارسات والتعاقدات والمقاولات.. والاتجاه إلى غيرها من المؤسسات التى يمكنها أن ترعى عمارة الفقراء كما ترعى خدماتهم الصحية والتعليمية والإنتاجية وتعمل بأسلوب العمل الخيري أو التطوعى حيث يعتمد تمويل هذه المؤسسات الخيرية على العطايا والتبرعات من كل الجهات فى الداخل والخارج نقدا أو عينا.. وهذا ما افتقدته تجربة حسن فتحى التى طالما اصطدمت بالروتين الحكومى وكان يسعى فى أواخر أيامه إلى إنشاء معهد تكنولوجيا البناء المتوافقة ليعمل على تنفيذ مشروعات إسكان الفقراء ولكن

أمله لم يتحقق حيث كان لابد من التعامل مع الإدارة الحكومية التي لا تقبل العمل التطوعي أو التبرعات أو البناء على الذمة أو التدريب في مواقع العمل أو غيرها من الوسائل التي تتناسب مع طبيعة البناء بالجهود الذاتية.. ويبقى موضوع التمويل هنا لطبيعة المؤسسات الخيرية التي يمكنها أن تتبنى هذا الاتجاه ويمكنها الاعتماد على مواردها الخاصة التي تتمثل في التبرعات بالمال والجهد أو بالمادة العينية. وهنا تصيح الزكاة أحد الروافد التي يمكن أن تغذى هذه المؤسسات بما يساعد على توفير الإسكان للفقراء والمحتاجين كما توفر لهم المبنى أو المأكل أو العلاج أو التعليم أو الآلة التي تعاوهم على العمل.. وهنا يظهر العمل الخيري أو التطوعي في صورته متكاملة يتوفر فيها المأوى كما يتوفر فيها الإنتاج الحرفي أو اليدوي بالإضافة إلى الخدمات الصحية والتعليمية وهنا يمكن أن يقوم الفقراء القادرين على العمل بتوفير العمالة اللازمة لأعمال البناء بعد تدريبهم حتى ولو تقاضوا أجرا يساعدهم على قوت يومهم أو تقدم لهم الوجبات خلال فترة عملهم في البناء والتشييد... ويقتصر دور الدولة هنا على توفير الأرض دون مقابل خالية من المرافق والخدمات التي يتم توفيرها أيضا بالجهود الذاتية من خلال هذه المؤسسات الخيرية. كما توفرها عنوة للمغتصبين من أصحاب الإسكان العشوائى.. وإذا كانت بعض الجمعيات الخيرية تقوم ببناء المساجد الكبيرة في مواقع قد لا تحتاج إلى مثلها وإذا كانت غيرها من الجمعيات تقوم ببناء المدارس والمستشفيات فلا أقل من أن تمارس نشاطها خلال مشروعات عمارة الفقراء التي يتوفر فيها المأوى والإنتاج والخدمة الصحية والتعليمية والبيئية معا.. وإذا كان أغنياء العالم العربي يتبرعون لبناء مشروع مكتبة في باطن أرض الإسكندرية فلا أقل من أن يتبرعوا لعمارة الفقراء زكاة عن أموالهم وأولادهم وممتلكاتهم.. وإذا كانت أجهزة الدولة التي يقتصر دورها على توفير الإسكان التعاوني أو الاقتصادي بمقدمات وقروض ميسرة لا يقدر عليها الفقراء فلا أقل من أن تخصص لهم الأرض المناسبة دون مقابل لتعميرها ثم تمدهم بعد ذلك بالخدمات إذا استطاعت.

إن توجيه مصارف الزكاة إلى هذه النوعية من المشروعات يصيب هدفه الديني والانساني والقومي معا.. فكم من أغنياء المسلمين قد شيّدوا الأربطة (جمع رباط) لإيواء الفقراء والمحتاجين ثم مدهم بالمأكل والملبس في المواسم المختلفة.. هنا يظهر التكافل في الإسلام في أقوى صورة. وهنا توجه الدعوة إلى إنشاء المؤسسات الخيرية لعمارة الفقراء.

وإذا كانت جمعية إحياء التراث التخطيطي والمعماري وقد دعت العالم إلى المشاركة في الندوة الدولية التي تنظمها في مارس 1992م عن عمارة الفقراء فهي تسعى بذلك إلى استخلاص أنسب الوسائل الفنية والتمويلية والتنظيمية التي تمكن الجهات الرسمية أو المؤسسات الخيرية من القيام بمثل هذه المشروعات المتكاملة وتدفع الأغنياء والقادرين للمساهمة في بنائها وتشييدها.. وإذا كانت عمارة الفقراء قد ارتبطت باسم حسن فتحي. فقد قامت الجمعية أيضا بالإعلان عن جائزة شرقية باسم جائزة حسن فتحي الدولية لعمارة الفقراء تمنح إلى المؤسسات والهيئات والمنظمات والأفراد الذين يساهمون بجهودهم في توفير العمارة للفقراء في أي دولة من دول العالم ويكون في ذلك فرصة للتعرف على إنجازاتهم واقتباس أنسب وسائلهم لخدمة الفقراء في مصر.. فهذا أقل ما يمكن تقديمه من زكاة العلم والمال.

وقد يبدأ نشاط المؤسسة الخيرية لعمارة الفقراء - ولتسمى مؤسسة حسن فتحي لعمارة الفقراء - بعد استكمال الإجراءات القانونية لإنشائها واختيار مجلس إدارتها بالتفاوض مع السيد وزير التعمير بمنحها موقعين أو ثلاثة مواقع لإجراء أول تجاربها التنموية عليها ثم تتجه بعد ذلك إلى إنشاء نواة لمركز البناء بالجهود الذاتية مستعينة بذلك ببعض الخبرات الدولية التطوعية وليكن منها مركز البناء للفقراء بالهند وهي المؤسسة التي نالت جائزة حسن فتحي الدولية لعمارة الفقراء لعام 1992م وذلك بإنشاء مكابس لإنتاج الطوب الطفلي من الأرض الصحراوية ثم تنظيم معسكرات للشباب خريجي الجامعات من الباحثين عن العمل والمسكن للقيام ببناء اللبنة الأولى لهذه التجمعات السكنية الجديدة بعد تدريبهم بمعاونة المتطوعين من أساتذة العمارة والإنشاءات.. وربما كان لطلبة السنوات النهائية في كليات الهندسة دور في هذه العمليات كأحد المناهج العلمية والعملية التي

يدرسونها في مادة عمارة الفقراء وحتى لا تقتصر العملية التعليمية على دراسة عمارة القادرين. هذا هو أحد جوانب التوازن الاقتصادي والتكافل الاجتماعي الذي يدعو إليه الإسلام.

إن مؤسسة حسن فتحي لعمارة الفقراء هي السبيل الحقيقي والعملى للتصدي لهذه المشكلة المزمنة التي عجزت عن معالجتها الهيئات الرسمية الحكومية والدعوى هنا لهؤلاء الذين تغنوا بفكر حسن فتحي لكي يتقدموا الصفوف ويحولوا كلماتهم الطيبة إلى عمل وتبنى هذه الرسالة الإنسانية التي تهدف إلى خدمة هذه الفئة المحرومة من الفقراء. والله من وراء قصد.